



تمثلات الوحدة والفقء في رواية زقاق الجُمجُم مقارنة سايكوسردية

أ.م.د. شاكِر عجيل صاحي الهاشمي

كلية الآداب / جامعة واسط

E-Mail: salhashimi@uowasit.edu.iq

تاريخ الاستلام : 2022-02-13

تاريخ القبول : 2022-03-15

ملخص البحث:

تحاول هذه المقاربة النقدية أن تبحث في الأبعاد "السردنفسية" القائمة والمهيمنة في رواية (زقاق الجُمجُم) للروائي العراقي بيات مرعي، عبر مسار مهم متعلق بالوحدة والفقء؛ لذا جاءت الدراسة بعنوان (تمثلات الوحدة والفقء في رواية زقاق الجُمجُم لبيات مرعي مقارنة سايكوسردية)، وقد عملنا على استكناه تلك التمثلات عبر مسارات مهمة قُسمت على مبحثين، الأول: (تمثلات الفقء المعنوي)، إذ ضم عددًا من التمثلات المتعلقة بالفقء مثل اللجوء والترمّل والنعوسة والاعتراب الشخصي، في حين ضم المبحث الثاني الذي كان بعنوان (تمثلات الفقء الحسي) جانباً موازياً لطرائق فهم الفقء والوحدة عندما تناولنا فيه بكثير من البحث والمتابعة حالة فقء الزوج وفقء الأخ وفقء الأصدقاء والأحبة، وقد درجت الدراسة إلى التمثيل السردى عبر النصوص الواضحة ومن ثم الوقوف على مناطق الإيعاز الحسي والنفسي لدى الشخصيات التي تتسلل إليها تلك التمثلات، لأن هذه المهيمنة أسهمت بشكل واضح في تحديد المسار الفكرى والنفسي لدى تلك الشخصيات ووضعها تحت ضغط الفقء لتتمظهر جملة من السلوكيات النفسية المنعكسة على السرد والبنية العامة للرواية.

الكلمات المفتاحية: الفقء، يشعر، تمثّل، النفسى.



Representations of loneliness and loss in the novel Zukak al-Jumjm, a psycho-narrative approach

Receipt date: 2022-02-13

Date of acceptance: 2022-03-15

Abstract

This critical approach attempts to search for the existing and dominant “psycho-narrative” dimensions in the novel (Zukak al-Jumjm) by the Iraqi novelist Bayat Maree, through an important path related to loneliness and loss. Upon finding these representations through important paths that were divided into two sections, the first: (representations of moral loss), as it included a number of representations related to loss such as asylum, widowhood, spinsterhood and personal alienation, While the second section, which was entitled (Representations of Sensory Loss), included a parallel aspect to the methods of understanding loss and loneliness when we dealt with it in a lot of research and follow-up, the case of losing a husband, losing a brother, losing friends and loved ones. The study included narrative representation through clear texts and then standing on the sensory and psychological induction areas of the characters that these representations infiltrate, because this dominant clearly contributed to determining the intellectual and psychological path of those characters and placed them under the pressure of loss to show a set of psychological behaviors reflected on Narrative and general structure of the novel.

Key words: (loneliness, feel, represent, psychological)



المقدمة:

إن فكرة محررات الإبداع فكرة قديمة لكنها متجددة تنسل إلى الحقول النقدية محملة بثقلها المعرفي والتأثيري الذي يؤسس فيما بعد طابعاً إبداعياً قرائياً معاً، فالحياة والموت والوحدة والنوم والأكل والولاء والحب والكره، وغير ذلك من صور التأثير والاستحاث الكتابي، نجدها ماثلة في صورة الأدب المستقر البعيد عن أشكال التلون الدلالي التي لا تتضح طبيعتها التكوينية ولا البنائية، فتجد النص مكرساً على توظيف كل قيم الثيمة مختزلاً كل عناصرها التأسيسية التي من شأنها خلق حالة من التوافق المنهجي والإبداعي الذي يُلائم بين السياق الدلالي والمعالجات الإبداعية والتركيبية.

ولعل رواية (زقاق الجُمُج) للكاتب والمسرحي الموصلي بيّات مرعي واحدة من أكثر الروايات المعاصرة وضوحاً وتجلياً في الإفصاح عن البؤرة الثيمية التي تحرك بنى النص، وتسهم في آليات بنائها وطرائق تركيبها، ومن يتصدى لهذه الرواية بالقراءة والهضم والتعمق في صور التحليل والتنقيب يجدها روايةً دلاليةً بامتياز على الرغم من كونها تُسند إلى بنية أسلوبية واعية جداً، وتأتي هذه المهيمنة الدلالية من استعلاء وسيطرة موضوع الوحدة المتبوعة بإحساس الفقد على مدار متن الرواية.

ولعل هذا السياق التركيبي والدلالي الممتزج منحدر من أصل المجال الدلالي الذي تبحث فيه الرواية، فهي رواية تُصنف من روايات الحرب، فقد استمدت أحداثها وسياقاتها من قصص الحرب العراقية الإيرانية، تلك الحرب التي ظلت فاعرةً فاها جائعةً للمعالجات الإبداعية والفنية التي تحاول أن تغطي جزءاً يسيراً من ملبساتها الفكرية ومكوناتها التاريخية وسلوكياتها المرجعية المترسخة في ذاكرة الأجيال، فعلى الرغم من كل ما كُتب، تبقى هذه الحرب ميداناً ثيمياً بكرةً للكتابة والاستدلال الفني والإبداعي، من هنا استكنه بيّات مرعي وعيه الذاتي والمرجعي ليعزز الرواية بفكرة الوحدة والفقد منطلقاً منها وصولاً إلى الأزقة والبيوت والأمكنة الآمنة التي تحيا استنفاراً عاطفياً حاداً متعلقاً بجبهات القتال.

فتأسست الوحدة سياقاً نفسياً أولي لدى كثير من الشخصيات الماثلة في الرواية، فالوحدة أولى مراتب الفقد، فالزمن عاملٌ أساسي يحاول أن يغير المفاهيم في هذه الرواية عبر الامتداد والتسويق وقطع خيوط الأمل، لتتحول الوحدة من تمثّل حقيقي سلوكي إلى شعور نفسي حاد وما أن يتحول إلى ذلك الشعور النفسي فإنها تصل إلى مراحل الفقد.

وتنطلق هذه المقاربة "السايكوسردية" من العمق النفسي المتراكم الذي تتركه حساسية الفقد الماثلة في تراكمات الوحدة في السلوك المشترك للكثير من الشخصيات في الرواية، فثمة محوران أولهما الفقد المعنوي المقترن بالأحاسيس، ولاسيما تصدير



فكرتي الغربية والاعتراب، والعمل على استلهاام المواقف الحياتية التي تعزز من توالي هذه الأفكار بالطريقة التي تجعلها تلبس لباس الفقد بكامل أناقتهأ، في حين أن المحور الثاني يقتصر على الفقد الحسي، المرتبط بالشخص المتوازية، ليأخذ طابعاً اجتماعياً مقروناً باستجابات وسلوكيات نفسية حادة تمثل الدور الذي يؤديه الفقد في حرف السلوك وتسمين التراكمات الذاتية الخاصة التي تعزز العزلة وتبرهن إلى رسوخ موضوع الوحدة في الرواية.

الوحدة والفقد (الرسم والمفهوم)

تقتضي المقاربات النقدية الحديثة مراعاة المفهوم اللغوي للمصطلح بالشكل الذي يضمن حقيقة التواصل بين المجالين على حد سواء، بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي للمصطلح، ولأننا إزاء مصطلحين متوازيين، سنحاول أن نأخذ كل واحدٍ منهما بشكل منعزل عن الآخر، ثم نحاول الربط والجمع بين المصطلحين.

وإذا ما بدأنا بمصطلح الوحدة وأخذنا نبحت في معناها اللغوي فإنه يشير في لسان العرب إلى أحاديث كثيرة أشارت إلى معنى الوحدة في اللغة، فقد جاء في حديث حنظلية وكان رجلاً متوحداً، وفي حديث جابر: ودفن أبيه في قبرٍ على حدةٍ وروى عن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أنه قال لرجل اذكر الله وأوماً بإصبعيه وقال أحدٌ أحدٌ" (ابن منظور، مادة وحد: ٥٧٠)، إن دلالة المعنى اللغوي للوحدة ينصرف مباشرة إلى التوحد أو الوجدانية أو التوحيد ضمن المعنى الديني الذي يشير إليه المصطلح، والوحدة هي اتخاذ الذات خليةً من دون الناس جميعاً، ولا تغادر الدلالة الاصطلاحية للوحدة عن المعنى اللغوي عندما تشير الوحدة إلى سلوك فردي خاص يلزم الفرد بالاعتزال والاعتكاف في الأماكن التي تبتعد عن الناس والتجمعات دائماً.

ونجد مفهوم الفقد في اللغة ماثلاً في المعاجم اللغوية، فقد جيء من (فقد) الفاء والقاف والذال أصيل يدل على ذهاب شيءٍ وضياعه، من ذلك قولهم: فقدت الشيء فقداً، والفاقد: المرأة تفقد ولدها أو بعلها، والجمع فواقد. فأما قولك: تفقدت الشيء، إذا تطبته، فهو من هذا لأنك تطلبه عند فقدك إياه (الرازي، ١٩٧٩: مادة فقد)، في حين أن المفهوم الاصطلاحي للفقد يتأتى من حقيقة المعنى اللغوي للمصطلح الذي يشير إلى الضياع والعوز والحاجة، فالفقد "شكّل ظاهرة بارزة في التاريخ الإنساني تنطوي على مفاهيم كثيرة متداخلة، وقريبة من مفهوم الفقد كالموت، والحزن، والآلام، والقمع، والتسلط، وغيرها تمثل الحياة برمتها" (محمد، ٢٠٢١: ص ١٦)، فهو إشارة مباشرة إلى حزمة من المعاني والمفاهيم التي تقود إلى العزلة النفسية والفكرية والجسدية معاً، فضلاً عن ذلك فإن الدلالة الاصطلاحية والفكرية في الموضوع تتجلى في الجانب النفسي الحاد الذي يعزز من



طاقة الفقد والحاجة والعوز الذي يتجذر في الشخصية لكن الفقد ينطلق من دافع نفسي حاد والدوافع توجه السلوك الفردي إلى تحقيق هدف معين في العالم الخارجي، وهي حالة استنارة، وتوتر داخلي تثير السلوك وتدفعه إلى تحقيق هدف معين (السيد، ١٩٩٠، ص ٤١٩)، فضلا عن ذلك فإن الفقد استجابة فعلية طبيعية للواقع المر الذي يتسلل إلى الشخصية عبر الإسقاطات الحادة التي تحاول تحييد المسار السلوكي للشخصية من الإطار الحياتي العام إلى السياق الخاص.

إنّ مقارنة مصطلحي الوحدة والفقد في سياق واحد ضمن دائرة هذا البحث يجعلنا نحاول أن نجد العلاقة الترتيبية بين المصطلحين، ولأن الفقد حالة نفسية بامتياز كان نتيجة مباشرة للوحدة، والوحدة سلوك مباشر يتحسسها الإنسان؛ لأنه على تماس مباشر مع شخصيته، لكن الفقد حالة شعورية خاصة، وهذا يعني أن الوحدة التماس حسي غير مجرد، تتجلى عبر استكناه الموجودات التي تحيط بالإنسان بشكل عام، اما الفقد هو الطابع المجرد الذي يتم تطعيم الوعي به عبر سياق الوحدة، فهو نتيجة مثلما ذكرنا للوحدة، وسنحاول أن نتعرف على تمثّلات الوحدة والفقد في رواية زقاق الجُمجُم لبيات مرعي، هذه الرواية التي استنفدت طاقة الكاتب في التشخيص الدلالي للشخصيات التي وردت في النص لكن ضمن نسق الوحدة والفقد، فسناحول من خلال هذه المقاربة أن نقف على هذه الظاهرة عبر مبحثين اثنين، الأول: تمثّلات الفقد المعنوي والثاني: تمثّلات الفقد الحسي.

المبحث الأول

تمثّلات الفقد المعنوي

يمكننا أن نفهم الأدب في أحد أبرز تجلياته المفاهيمية على أنه ميدان سلوكي قولّي لتصارع الألفاظ والمعاني أو لتعاشقها بتعبير أكثر رافة، فالمعاني المطروحة في الطريق يربطها نوع من الامتداد إلى الألفاظ أو الصيغ التركيبية التي تحاول أن تحتضنها، ولأننا أمام معانٍ لا حصر لها ينبغي علينا أن نقف جلياً عن المعاني الجادة المهمة التي تعد محركات رئيسة للأدب، ولعل موضوعة الفقد تشكل واحدة من الموضوعات المهمة التي شغلت حيزاً مهماً من الأدب العالمي بشكل عام والأدب العربي بشكل خاص.

ولأن تمثّلات الوحدة والفقد لا تتحدر إلا من الأراضي الخصبة التي تغذي هذا النمط من الموضوعات، نجد العراق رديفاً على ما مرّ به من أزمات وحروب خلّفت وراءها مأساة إنسانية كبرى امتدت وستمّت إلى مئات السنين، فالفقد إذن "ظاهرة بارزة في



التاريخ الإنساني تنطوي على مفاهيم كثيرة ومتداخلة، ويعد العراق من أكبر المواجهين له، لذلك استجابت ثقافته لهذا التحدي الخطير الذي يهدد إنسانه وحضارته" (محمد، ٢٠٢١: ص ٤٥)، فهو سمة دلالية راسخة في الفكر العالمي وقد تمثّلت في الأدب العالمي شعراً ونثراً، وقد تمثّل الفقد المعنوي بوصفه سياقاً مهماً من سياقات الوحدة في رواية "زقاق الجُمجُم" لبيات مرعي، ضمن محاور مهمة لعل من أبرزها:

أولاً: اللجوء

يعد اللجوء أبرز الصور الماثلة للوحدة والفقد في النصوص الروائيّة والأدبيّة بشكل عام، ولعل اللجوء إلى الآخر هو نتيجة مباشرة لتفشي أثر الوحدة والإحساس بالفقد وخسارة الشراكة الحياتية، فالأنا تستتر بوحدها وخصوصيتها وتميل دوماً لتحقيق ذاتها الفريدة عبر سياقات اللجوء إلى الآخر إنما احتدمت بالواقع وسئمت التواضع معه، فهي مركز الشخصي في نفس الفرد كما انها تنمو وتفصح عن قدرتها من خلال البيئة المحيطة أو الوسط الاجتماعي ويبرز الشعور بالأنا من خلال تلازم الذات مع الآخر (النويخ، ٢٠٠٩: ص ٢١)، لذلك يرغب الإنسان في كل مرة أن يجد لنفسه ما يشغلها عن فقدها الأول وهنا يتحقق اللجوء إلى الآخر عن طريق سياقات النص الأدبي أو الروائي على وجه التحديد.

ويمكننا القول: إنّ الكاتب بيات مرعي استثمر فكرة اللجوء إلى الآخر لمعالجة فكرة الفقد الطاغية في الرواية عن طريق محورين اللجوء إلى الذات واللجوء إلى الآخر، وعبر هذين النمطين من اللجوء كان التمثيل واضحاً جداً لصورة الفقد في الرواية، بل عكس جانباً مهماً من جوانب الجنون والخبل واللجوء إلى الحيوانات والجمادات والأمكنة المختلفة في محاولة لمعالجة حالة الفقد ووزن الأمور بميزان المنطق والعدالة الفعالة.

إن اللجوء إلى الآخر أو إلى الذات تمثّل في هذه الرواية حالة جنوح "الحاجة نوفة" إلى قطها الأسود الذي وجدت فيه مهرباً لواقعها البائس "الحبية نوفة" في غرفتها تبث عن قطها الأسود الذي غاب عن أنظارها منذ الصباح، تجول في زوايا البيت كله بحثاً عنه، تحت السرير، تحت طاولة السفرة المثقوبة، تحت النافذة المطلّة على الزقاق، حتّى أحالت الغرفة إلى هرج ومرج وكانت نظراتها المشوشة - بين لحظةٍ وأخرى - تقع على الفتحة أعلى الباب المسندة بزجاج مكسور، ما أحدث شكّ لديها في أنه خرج منها متوجهاً إلى الحمام، فهو لم يأكل على غير العادة الطعام الذي وضعته له، فتشت المكان كله وظلت تصيح وتناديه بكل الأسماء والألقاب التي اعتاد أن يسميها منها لكن دون جدوى" (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٦٠، ١٦١). إنّ حالة الفقد



في هذه الرواية تتمثل في مجالات متعددة، لعل مجال اللجوء من أكثر المجالات وضوحاً، وتتمثل هذه الحالة في لجوء بعض شخصيات الرواية إلى الذات والآخر في محاولة واضحة لمعالجة الفقد الكلي الذي تعيشه بعض الشخصيات، فلدينا شخصية "مهديّة" التي افتقدت كل شيء حسن الحجار وإبراهيم الحمال لجأت إلى ذاتها الخاصة وبدأت تحاول أن تعيش نوعاً من التجلي الذاتي من خلال استثارة الحوار الداخلي مع الذات الماثلة في المرأة، كما سنرى في تمثّل الفقد الكامن في فكرة العنوسة والترمل، أما في النص أعلاه فقد تمثّلت حالة الوحدة والفقد في شخصية "الحجية نوفة" التي تعيش في عزلة تامة في بيتها، فبعد أن أمضت سني عمرها وحيدة في بيتها الكبير لم تجد ملتجأً لتبديد حالة الوحدة والفقد إلا إلى قطها الأسود الذي مثّل حالة من التوازن السلوكي والنفسي لدى "الحجية نوفة"، ومع مرور الأيام أصبح لهذا القط الأسود حضوراً فاعلاً في البيت وأعاد توازن الحياة من جديد، ففرض ذاته على أنه حالة حيّة من حالات اللجوء فلجأت إليه "الحجية نوفة" بوصفه مصدر الإيعاز الحياتي الذي قاوم تمييط حياتها، وما يؤكد أهمية وخطورة الموقف الذي سجله هذا القط الأسود على حياة "الحجية نوفة" انتكاستها النفسية الحادة التي تمثّلت بعدما خرج ذلك القط من البيت ولم يعد، فهو أعادها إلى جادة الوحدة من جديد بعد أن كان أنيسها الوحيد الذي ملأ عليها البيت بالحياة، وهذا اللجوء هو تمثّل لحالة الفقد التي عاشتها "الحجية نوفة" داخل الرواية.

تقف الكثير من الشخصيات في الرواية على محور اللجوء إلى الذات بعد السياقات النفسية المربكة والحادة التي عاشتها تلك الشخصيات في زقاق الجمجم ولاسيما عند نسوة المحلة اللواتي بدأن يلجأن إلى ذواتهن المقهورة بسبب نفاذ الصوت الرجولي في الحي، "ظلت مهديّة أمام مرآتها تحرق الوقت بدموعها وتمعن - بين الحين و الآخر - في وجهها بحثاً عما بقي من نضوجها الجميل تتذكّر آخر إطلالة لنضارتها تتلمّس جبينها وتلك الحزوز القليلة فتترك ابتساماً كلها أمل وهي تقرأ شيئاً في أعماق روحها مفاده أنّها ما زالت بحقّ تحتاج رجلاً يمنحها ديمومة الحياة." (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٥٨). عندما شعرت مهديّة ببصيص الأمل الذي ينقلها من كابوس الوحدة إلى دائرة المجتمع، شعرت باخضرار روحها وانسجامها إلى ذاتها بعد أن وعدا إبراهيم العامل بأن يتقدم لها، لكن سرعان ما تغيرت تلك المعطيات عندما غاب عنها لفترة طويلة، فصحبته حالة من التوتر الحاد، وعادت لتعيش حالة الفقد من جديد، ما دفعها إلى الانطواء إلى ذاتها واللجوء إليها فقد وقفت أمام المرأة لتتجرد عن كل شيء وتحاول أن تصنع من ذاتها ما يمكن أن يستمع إليها حوارها الداخلي ومونولوجها الخاص الذي استحضرتة عبر علاقتها بالمرأة، كانت تطيل الوقوف أمام المرأة وهي تمنى نفسها بمن فارقها إلى المجهول من دون سابق معرفة، أخذت تفرغ ذاتها



وتحاول أن تجد لنفسها أجوبة لوحدها، لا أحد يستمع إلى نحيبها ولا أحد يمكن أن يرى دموعها وهي تسيل على خديها، فلم تكفي بتلك النظرات التي تلتقي بصورتها على المرأة، وهي تبرهن لنفسها براءة ذاتها وحسن تصرفها عندما تمنعت عن لقاء إبراهيم العامل، لكنها عادة مرة أخرى لتشعر بفداحة الفراغ الذي تسبب لها ذلك السلوك، لترتمي على سريرها وحيدة لا أحد يشعر بما تشعر به، راحت تبرز لذاتها ضعفها إلى من يؤنس وحشتها ويبدد غربتها الداخلية، فلم تجد أحداً إلا صورتها ملتصقة بالمرأة ولم تسمع أحداً إلا صوت نحيبها وبكائها، لذا فقد لجأت إلى ذاتها تعبيراً عن حالة الوحدة والفقد التي عايشتها بعد أن تأزمت حالتها النفسية بغياب خطيبها.

ثانياً: العنوسة والترمل

مثل موضوع العنوسة ظاهرة لافتة للنظر في رواية "زقاق الجُمجُم"، إلى الدرجة التي جعلت هذه الرواية تسير على وفق نسق نسوي واضح، يمكن للقارئ أن يستشف هذا البعد عبر خامة الشخصيات النسوية المقدمة في الرواية، وربما استطاعت هذه الرواية أن تقدم تحديثاً بنوياً لمفهوم العنوسة، غير أن قراءة هذه الرواية مكنتنا من المثول أمام هذا المفهوم المقيد إلى مفهوم آخر أكثر دينامية، فالعنوسة بالانطلاق من رؤية الكاتب والرواية معا هي ذلك الإخفاق النفسي العميق الذي تسببه الوحدة في الذات البشرية، لتمثل دالة الفقد صورة سلوكية حية في المسار الشخصي، فالنزوع إلى الحبيب من دون وجوده عنوسة، والنزوع إلى الزوج من دون وجوده عنوسة، والنزوع إلى الآخر الجنسي من دون وجوده عنوسة إن هذا الفهم وسع دائرة فهم العنوسة فالعراقية الإيرانية التي كانت محوراً مهماً للرواية صنعت من الشخصيات محوراً آخر للتحلل النفسي والسيكولوجي، فضلاً عن أن مساحة الفقد التي تمثلت في الرواية عبر موضوع الزوج المفقود صارت واضحة وجلية ما ترك الأثر الواضح للعنوسة في النص.

إن هذا المحور المهم في هذه المقاربة النقدية لرواية "زقاق الجُمجُم" يمثل مفتاحاً فاعلاً في تسجيل موضوعات أخرى تبحث في حضور العنوسة في الرواية العربية، أو تحاول أن تتلقى موضوع الترمل لكن بإطار مرجعي نفسي واضح، فقد شاع في هذه الرواية بشكل كبير التأطير لموضوع العنوسة والترمل، فالرواية مهتمة بقضايا المرأة بالدرجة الأساس، وتحاول أن تعالج



الخلجات النفسية الحادة التي تتمثل في صورة الفقد الذي تعيشه العانس والأرملة، وإن زقاق الجُمُجُم يكتظ بالنساء اللواتي فقدن أزواجهن في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، لذلك نجد الكثير من النصوص التي تعكس صورة الفقد السائر في هذا الاتجاه.

ومن ذلك ما جاء في الرواية حول التسريد الذي يصف الحالة النفسية لنساء الحي "في ساعات كثيرة تتمثل الوحدة عصاً تضرب الجسد المبلل بالمطر، لا حديث للأرامل سوى الأسي، ما الذي يعنيه أن يكون المرء سجين ذكرياتٍ حزينة؟ النساء اللواتي انتزعت منهن زينة الحياة في أحضان الرجال الدافئة إلى قلاع في أطراف تلك الوحدة الباردة الموحشة بلا ذنبٍ اقترفه لتبقى في أنفسهن مجرد محاولات ليتلمسن - على عمى - ملامح الحياة داخل نفوسهن المحبوسة بالأمنيات والشكوى دوماً" (مرعي، ٢٠٢١: ص 128)، يُصعد هذا النص الذي جاء متواتراً في مواضع كثيرة من الرواية حالة اليأس والأسى والقلق النفسي والفكري والجسدي التي لازمت نساء الحي وهن يجابهن الحياة بأحاسيسهن العارية إلا من الحياء، فقد استشرى قدر الترمل في أوساط الحي إلى الدرجة التي جعلت من لديها زوج محل استغراب وريبة، هكذا كنّ ينظرن إلى فتحية زوجة الحاج يونس ويغبطنها على نعمة الرجل الذي يملأ البيت بالحياة والحركة حسب وصفهن، وسرعان ما لحقت فتحية بركب الأرامل والعوانس عندما ذهب الحاج يونس إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، لكنه ذهب ولم يعد، فأصبحت واحدةً من جمع كبير لنساء الزقاق، يتعاضم الحس الوجودي بالفقد والحرمان والوحدة.

عود دالة النص من جديد لتتمحور حول موضوع الترمل الذي يقود إلى عنوسة معنوية حادة، فلا تزال النسوة في ريعان شبابهن قضمت الحرب حياتهن بسرقة أزواجهن، وصناعة حياة قاسية جداً لا تتناسب وتطلعاتهن وأفكارهن المشعبة بالحياة، "غالية بنت الست سلمي تعمل ممرضة في مستشفى الزهراوي، وهي أرملة مقتول على يد قاتل لم يُعرف عنه أي شيء وقد قُتِل حين كان عائداً من إحدى القرى التي يسكن فيها عدد من أقاربه، في إحدى الليالي عثر عليه مرمياً على أحد أرصفة الطرُق خارج المدينة بعد أن صدمته سيارة يبدو أنّ سائقها طائش فولّى هارباً دون أن يترك شيئاً من الرحمة خلفه." (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٠٢) وهذه غالية بنت الست سلمي واحدة من أرامل المدينة اللواتي فقدن أزواجهن للاشيء وجد مقتولاً على الرصيف بعدما عاد من إحدى القرى التي يسكنها بعض أقاربه، لقد دهسته سيارة لم يعرف أحد عن صاحبها شيئاً، فتركت هي وحيدة تعاني من حالة اليأس والقنوط والتحلل الذاتي والنفسي، في كل يوم تندب حظها العاثر الذي تبيس على جدران الحياة، وهي حالة من حالات كثيرة كانت قد تعممت في الرواية لتشكل فيما بعد سياقاً مدلولياً يمكن أن ينعكس على الطابع العام للرواية، بوصفها



رواية تبحث في الحياة الدقيقة لنسوة الحي، ولعل مشكلة العنوسة التي جاءت نتيجة مباشرة لأزمة الحرب التي لازمت البلاد لسنوات طوال، فكانت فكرة الترمّل تمثل خطأً فكرياً نفسياً مهماً داخل بنية الرواية، وقد أثر على سياقها العام عندما أصبحت الأرملة تعيش بمعزل تام عن محيطها الرجولي، فتأثر بذلك منطقها وحوارها وسلوكها النفسي والاجتماعي والفكري.

ثالثاً: الاغتراب الشخصي

يبقى موضوع الاغتراب من الموضوعات القارة والفاعلة في النقد الأدبي الحديث، ويأتي ذلك نتيجة مباشرة لما تم توظيفه من اغتراب داخل بنية الأدب، والذي يعكس بصورة أو بأخرى حالة القلق والانفصام والتوحد التي تعيشها الشخصية العربية، والاغتراب حالة نفسية بامتياز فهو "الشعور بالضيق والقصور لفرق أو توقع فراق لبيئة المنزل أو الوطن أو كل شيء ارتبط به المرء وتعلق به، ويأتي الإحساس بالغرابة مصحوباً في الغالب الأعم بمشاعر القلق والاكتئاب، وتندرج هذه المشاعر في الشدة من البسيطة إلى المتوسطة إلى الشديدة" (الشهرزوري، ٢٠١٨: ص ١٧٦، ١٧٧).

ونجد الاغتراب ماثلاً بقوة في الرواية لأن أعظم صور الفقد والوحدة الخفية كانت متمثلة في الإطار العام الذي يحيط بحياة مهدية وهي من الشخصيات الرئيسية في النص فقد عاشت حالة الاغتراب الشخصي بكل صورته فهي تواجه في هذه الرواية سلوكيات تدفعها إلى الانحياز إلى ذاتها والتخلي عن كل شيء حولها، فقد بات كل شيء حولها بمنأى عنها "ظلت مهدية أمام مراتها تحرق الوقت بدموعها وتمعن - بين الحين والآخر - في وجهها بحثاً عما بقي من نضوجها الجميل، تتذكر آخر إطلالة لنضارتها، تلمس جبينها وتلك الحزوز القليلة، فتترك ابتسامة كلها أمل، وهي تقرأ شيئاً في أعماق روحها مفاده أنها ما زالت، بحق تحتاج رجلاً يمنحها ديمومة الحياة" (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٥٨). إن تتبع سيرة مهدية في هذه الرواية وهي شخصية شغلت حيزاً واسعاً من الطاقة السردية يفضي إلى تصور أنها شخصية تتمتع بامتداد ونفوذ نفسي ومجتمعي عالٍ، لكن العكس هو الصحيح، "فمهدية" غدرتها آلة الحرب وخطفت منها زوجها، فتقنعت بالوحدة وعاشت كل مظاهر الفقد، في الوقت الذي لم تستطع الولوج إلى حقيقة معينة بخصوص زوجها الفقيد، لكن أخباراً متضاربة حول استشهادها جعلتها تنتقل ثانية من حالة القلق الملازمة إلى حالة حياتية جديدة تمثلت "إبراهيم الحمال" الذي تقدم لخطبتها لكنه سرعان ما غاب هو الآخر لأسباب مجهولة فندبت حظها العاثر وعاشت العنوسة والترمّل في أن واحد، فكانت تضي ساعاتٍ طوال وهي تقف أمام المرأة تحاول أن تجد



سبيلاً للنفوذ إلى ذاتها وجمالها الذي بدأ بالذبول والأفول، وهي تشعر بحسب ما موضح في النص أنها بحاجة ماسة إلى رجلٍ يعيدها إلى الحياة من جديد بعدما تخللتها مراتب اليأس من كل جانب.

ومثل هذا النص ما نجده أيضاً ماثلاً في مواطن متفرقة من الرواية، فقد مثّلت لازمة سردية تتحدث عن الهاجس النفسي الحاد لمهدية "ظلت مهدية ليلتيا عديدة تقف مرة أمام المرأة حتى الفجر تحدّثت نفسها ودموعها على خديها دون أن يسمعها أحد، تبكي مخنوقة بأنفاس احتراقها القاتلة" (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٥٧)، إن هذا النص يشير صراحة إلى ذلك الامتداد الذي تعيشه الشخصية داخل بنيتها التكوينية والذي تحول إلى حالة من الاغتراب الشخصية الذي وضع الشخصية بمواجهة ذاتها مجردة من كل الأدوات التي من شأنها تبديد القلق وشغل البال بما يوسع أكثر للحياة، فالاغتراب عزلة شخصية تمثّلت في شخصيات كثيرة من الرواية كانت مهدية واحدة من أكثر الشخصيات وضوحاً في هذا المجال.

المبحث الثاني

تمثّلات الفقد الحسي

تستمر رواية "زقاق الجُمجُم" في صياغة الطابع التراجمي الفاعل من تعزيز فكرة الفقد في مختلف متون الرواية، فلا تزال تلك الخيوط النفسية المتشظية في الرواية تعود وتتمحور حول ذلك الطابع الراسخ الذي وصل تأثيره إلى بنية الرواية وحكايتها على حدٍ سواء، وقد استنفر الكاتب والزوّائي بيات مرعي إمكاناته الفكرية والإبداعية كلها في تحفيز الذاكرة لرسم تلك الصورة الواقعية في أدبيات السرد بوساطة هذه الرواية، فالتجربة تمثّلت في محاولة تحويل ترسبات الذاكرة إلى سياق نصي متجانس يحاول تعزيز انطلاقة الفكرية إلى رصد حالة الفقد في كل ملامح النص والسعي لإظهارها بالصورة التي تضمن تحقيق أكبر عدد ممكن من السياقات الفكرية التي تظهر الفقد على أنه السياق الأبرز في كل مفاصل الرواية عبر تمثّلاته المعنوية والحسية.

وبعد أن تحدثنا عن ذلك البعد المعنوي في موضوع الوحدة والفقد، صار لابد لنا من الولوج إلى البعد الحسي للفقد عندما نجده سياقاً سلوكياً بارزاً في الرواية، فبعد أن تمت قراءة الرواية بشكلٍ دقيق استطعنا استجلاء أبرز التمثّلات في الفقد الحسي فكان فقد الزوج أولاً وفقد الأخ ثانياً وفقد الأصدقاء ثالثاً، من هذه المحاور الثلاثة سننطلق إلى السياق الجديد للفقد وهو الفقد الحقيقي الذي يترك في النفس نزعتها الروحية التي تتفرد بكثير من اليأس والقنوط ومحاولة انتحاء ركن يائس من الحياة.



إنَّ صورةَ الفقد تتجلى في هذه المظاهر الفكرية الحادة وتلك السلوكيات النمطية التي ترسم حدود الحياة بتواترٍ مقيت يجعل من المؤسف جداً ارتسام صورة الموت على شكل الحياة، بل إنه الموت يتسلل إلى حدود الحياة ويبرهن أن ثمة كثيراً من الأحياء يرتدون سمة الموت ذلك أن أرواحهم النيئة والطرية التحمت واحتدمت مع أناسٍ آخرين رحلوا إلى فضاء الفناء، فتركوا في نفوسهم امتداداً مأساوياً كبيراً قلل من فرصة وجودهم في الحياة مقارنة في وجودهم في حالة الفقد التي تمثّلت في كل صور السلوك الفطري للإنسان، من هنا صار لا بد من الولوج إلى هذه المحاور الرئيسية لمعرفة الأثر الفكري والنفسي والسلوكي الذي ينتج من استثمار فقد الزوج وفقد الأخ وفقد الأصدقاء في نص الرواية.

أولاً: فقد الزوج

إن علاقة الزوج بزوجه علاقة جدلية جداً ومرتبطة بالأساس في الركن الحياتي المهم الذي لولاه لانعدمت الحياة إلى الأبد، لذلك أشارت الحضارات القديمة إلى هذه العلاقة بنوع من القدسية، إذ "أتمت العلاقة بين المرأة والرجل في الحضارات القديمة عند السومريين، بنوع من القدسية والجلال" (المساوي، ١٩٩٤، ص ٣٢٤)، من هنا يمكن القول: إن انهيار أو اختلال هذه العلاقة القدسية سيؤدي إلى نتيجة حتمية مباشرة، إذ سجل فقد الزوج سواء أكان رجلاً أو امرأة حضوراً لافتاً في الرواية، فرواية "زقاق الجُمجُم" من الروايات التي يمكن أن تصنف بروايات الحرب، فقد امتدت السياقات النفسية والسلوكية والفكرية للحرب على كل مفاصل الرواية، أدى ذلك إلى ترسب تمثّلات الحرب إلى العمق النفسي والاجتماعي لشخصيات الرواية، فالحرب تعني الفقد والموت والعوز والرحيل ومفارقة الحياة، فضلاً عن ذلك فإن تلك الحرب عززت لدى الكثير من شخصيات الرواية عامل الوحدة التي تخللتها، فالحرب هي النسق السلوكي الأبرز الذي يهدد وحدة العائلة بمكوناتها الاجتماعية والأسرية المعهودة، لذا أصبحنا نلتمس العديد من الشخصيات الواردة في النص قد عايشت فكرة فقد الزوج بكل ما فيها من قلق نفسي ووجودي مؤسف، فلعل تلك الشخصيات التي تروم نفوسها إلى من فقدت من الأهل والأحبة تعيش حالة من الغربة الكامنة في وجودها وتفكيرها، ويرجع ذلك إلى أن "فقد الأحبة في الأوطان غربة" (المنجد، ١٩٧٢: ص ٣٢)، فضلاً عن أن الغربة إحدى سمات الشخصية غير المتوافقة، فعندما يكون الإنسان غير متوافق مع بيئته يشعر عند ذلك بغربة عن مجتمعه وبيئته المحيطة التي لا يحقق فيها انسجاماً كلياً (القاضي وآخرون، ١٩٨١: ص ٢٣٧)، وهذه الغربة ماثلة في سلوك الشخصيات عندما نجدها تتعري أمام الوجود أملاً في الحصول على ما يمكن لها التخلص من وهم الحياة إلى مصير يوصلها إلى بارقة الأمل.



يمكننا القول: إن الزوج مصدر الإلهام والحب بمعناه الواسع، وفقده يولد صورة حياتية مشوهة، إذ تتفاوت المشاعر إزاء ذلك الفقد بحسب أمور عديدة، منها قوة التحمل، والقدرة على التعامل، وعلل غياب الزوج عن زوجته وفقده (محمد، ٢٠٢١: ص ٩٦)، وقد مثل الزوج في هذه الرواية حلقة منقوصة تمثلت في الفقد الذي جسده من خلال الأثر المباشر الذي تركه الحرب على المجتمعات، فهذه زوجة صالح جاءت جثة زوجها متفحمة ولم تعرف لها أية ملامح يمكن أن توصلها إلى يقين الموت، لكنها عاشت الفقد كله عندما غاب عنها إلى الأبد "لم يرض ذلك المأمور أن يفتح صندوق زوجها الشهيد -صالح- فهذا أمر قد تبغ به بحسب قوله، لكن إصرارها على رؤيته والتأكد أنه هو -حقاً- من جاؤوا بجثته، كان أمراً لا بد منه بالنسبة إليها، ما إن كشفت غطاء الصندوق حتى رأت هيكلاً متفحماً لم يستطع أحد فك أي دلالة فيه تؤكد أنه هيكل صالح" (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٤٤). تتمثل حالة الفقد في هذا النص من صورة الغياب التي سايرت الزوجة ولمدة متواصلة عندما انقطع عنها الزوج الذي استشهد في إحدى معارك الحرب، فقد ظلت الزوجة تحاول أن تعزز القيمة الحياتية لديها عندما تتبع الأخبار المفرحة من قدوم صالح إليها في يوم من الأيام، كانت تمنى النفس بوصوله وهو يحمل حقيبة سفره عائداً من وحدته العسكرية، كانت تؤجل كل صيغ الفرح والسعادة وتحاول أن تعيشها واقعاً معه وبين يديه، على الرغم من انتشار صور الفراق والفقد في كل مكان، إلا أنها ظلت متشبتهً بأمل عودته، وبالفعل جاءها صالح لكنه جاء متفحماً موضوعاً في صندوق ملفوف بعلم البلاد، على الرغم من استنفار ذاكرتها لتعود بشيء منه فإنها لم تستطع الولوج إلى شيء منه فظلت عاقدة الأمل على عودته إليها من جديد، لكن ذلك الوجه المشوه جعل يحفر بروحها مأساتها الأبدية التي رسمت لها فلم تعد تأبه بشيء وراحت تصدق القدر المؤلم بكل نواحيه وسياقاته، فتمثل في ذلك السياق الحي فقد الزوج بأبهى صورته ولم تتوقف الرواية عند هذا الحد من الشواهد التي تتحدث عن الفقد الزوجي، فهذه فتحية بنت المدير التي فقدت زوجها الحاج يونس، وهذه مهدية التي فقدت زوجها حسن الحجار، فضلاً عن بقية الأرواح اللواتي انتحرن جانباً من جوانب الحياة بعد أن انقطع الرجاء منها.

ومثل هذا النص ما نجده أيضاً ماثلاً في مواضع متفرقة من الرواية "استيقظت صبيحة فجر اليوم التالي مع صوت صياح ديك بيت المختار، لقد ضاق صدرها بكابوس أيقظها مفزوعة، وقد اعتادت على رؤيته بين الحين والآخر، كابوس تلك الساعة التي حضر فيها جندي مأمور ومعه جثة الشهيد صالح، زوجها وابن عمها، جلست -كعادتها- عند نافذة تلك الغرفة الصغيرة على سطح دارها التي كانت قد أعدتها منذ زمن بعيد لتكون ورشة متواضعة للعمل في صناعة لوازم الخيول" (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٣٥).



ص ١٤٤). لقد عاشت صبيحة وهي من الشخصيات الرئيسية في الرواية وحيدة بعد أن تكلتها الأيام بزوجها الذي فقدته في الحرب، فمنذ ذلك الوقت وهي تعاني من حالة الفقد والوحدة التي ارتسمت على محياها، فقد أثرت على نفسها الولوج إلى الحياة من جديد وظلت تمنى نفسها بالوعد الذي كانت تنتظره في عودة زوجها على الرغم من أنها تجرأت وفتحت الصندوق الذي يحمله الجندي ورأت زوجها متقهماً فيه، ظلت وحيدة طيلة تلك المدة؛ لأنها أدركت عبر وعيها الانعزالي قيمة أن تكون المرأة وحيدة بلا رجل، بلا كيان يحافظ على وجودها ويحقق ذاتها بين نسوة الحي ولاسيما فتحية بنت المدير التي كانت تشاكس الحاضرات بنعمة الزوج، على الرغم من أنها أصبحت واحدة منهن بعد أن لفظ الحاج يونس أنفاسه الأخيرة في الديار المقدسة، لذا بدأت صبيحة تتطبع مع الوضع الجديد للمحلة بعد أن أصبحت ظاهرة الترمل وفقدان الأزواج ظاهرة عامة في الحي.

ثانياً: فقد الأخ

تواصل رواية "زقاق الجُمجُم" استحضار حالة الفقد والنسق الوجودي عبر استثمار كل الثيمات الشخصية، ومن هنا صار لابد من تتبع تلك التمثلات التي ترسم حدود الفقد في النص، فبعد أن تدرجنا في معرفة حالة الفقد الخاصة بالزوج نعرج الآن للوقوف إلى حالة أخرى من حالات الفقد الفكري والأسلوبي والسلوكي، لكن ثمة ضرورة مهمة ينبغي منها التعرف إلى السياق الأخوي أو الحدود التي ترسم مفهوم الأخ في الأنساق الاجتماعية عموماً والأنساق الروائية على وجه الخصوص، الأخ هو المشارك الآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما، أو من الرضاع، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو الدين أو في صنعة أو معاملة أو في مودة وفي غير ذلك من مناسبات" (الأصفهاني، ١٩٧٠: ص١٣)، تتأطر هذه الفكرة الاجتماعية بنطاق أسري اجتماعي فاعل من خلال اللازمة الأخلاقية والخلفية التي يمكن من خلالها الولوج إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تربط شبكة الشخصيات داخل بنية الرواية.

وقد حضرت هذه الحالة في مواطن متعددة في الرواية منها ما يكون افتراضياً ومنها ما يكون حقيقياً ولعل حالة الفقد التي عايشتها مديحة مع أخيها عبود المجنون الذي كان يمثل نسقاً شخصياً مغايراً لأخته مديحة التي وجدت فيه مخرجاً سحرياً استطاعت من خلاله التخلص من سياقات الضغط الحياتي المتمثلة بالترمل والعنوسة والتهايب النفس الإنسانية الأنثوية النزاعة إلى التحلي بكثير من الاندماج الجنسي والجندي، فكان عبود على الرغم من طابعه الخاص الفكري المعاق يمثل مرحلة مهمة من مراحل الرجل البيتي الذي كانت اخته تراه بألف رجل "لم أترك مكاناً ظننت أن يكون فيه إلا وذهبت إليه ولم أره، سألت



الكثير عنه وأنا أصفه: رجل مخبول ذو وجه حزين متعب ومكفهر ولحية كثيفة مبيضة، لقد رسمت صورته في ذاكرة كل من صادفني، ولا أحد عرف مكانه، عجيب هذا البلد لماذا يرحل عنه كل الذين نحبهم؟" (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٦٢)، يمكن عبر هذا النص التراجيدي التحسس والتحقق من القيمة الفعلية التي يحققها فقد الأخ، إذ أصبح فقد عبود - الأخ - بمثابة المرحلة الجديدة التي عاشتها أخته مديحة من خلال فكرة الفقد، فهو برحيله ترك البيت متلبساً بالموت والفناء لا تستطيع أخته الولوج إليه وقد بدا المكان أكثر شراسةً من ذي قبل، لم تكن مديحة تتصور أن عبود كان يشغل كل ذلك الحيز في حياتها وحيوة الحي بأكمله، إنه ببساطة الكائن الذي تتمثل فيه رجولة الحي بأكمله، فهو ليس لأخته مديحة فحسب بل هو رجل الحي الأول الذي تجاوزته آلة الحرب بسبب العوق الذهني والفكري الذي استتاه من الالتحاق بالجبهة العسكرية التي استنزفت كل رجال المحلة إلا هو، فقد شكّل فقده علامة يأس كبيرة لدى الجميع ليس لدى أخته مديحة فحسب.

ثالثاً: فقد الأصدقاء والأحبة

شكّلت حلقة فقد الأصدقاء في رواية "زقاق الجُمجُم" نسقاً مكملاً لحلقات الوحدة والفقد التي صنعت الثيمة الرئيسية للرواية، فبالاطلاع إلى هذه الحلقة وتحسس الإطار العام الذي تحركت فيه، نجدها تتأسس على نمط متوازٍ إلى النمط الحكائي العام الذي تتكئ عليه الرواية، فضلاً عن أن هذا النوع من الفقد المتمثل بين الأصدقاء والأحبة داخل بنية الرواية، يعطي مؤشراً واضحاً أن الرواية تستند إلى شبكة معقدة من الشخصيات الروائية المقترضة، التي تحتكم إلى دراما النص، غير أن الطابع العام للرواية انحاز إلى تمرير فكرة الفقد بين الأصدقاء والأحبة، ولاسيما أن الرواية تندرج ضمن روايات الحرب، انطلاقاً من التجذير للفضاء السردي الذي بدأت به الرواية للحرب العراقية الإيرانية وانتهاءً بما جرى للبلاد عبر العدوان الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية لإسقاط النظام في العراق سنة ٢٠٠٣، فقد خلّفت هذه الحروب المتعاقبة سلسلة من النكبات والكدمات النفسية الحادة بين أبناء الشعب العراقي بوجه عام والشعب الموصلّي على وجه الخصوص، ففارق الكثير من الأصدقاء والأحبة أصدقاءهم وأهلهم إما في ساحات الحرب أو في الأسر أو في أي سياق آخر من سياقات الحرب التي عايشها العراقيون في كل بقاع أرض الوطن.

ومن الشواهد السردية التي توضح الأثر المهم الذي تؤديه علاقة الأصدقاء فيما بينهم وأثر حالة الفقد فيما بينهم نجدها ماثلةً في علاقة الحاج يونس مع المحيط الخارجي به من الأصدقاء والأحبة " أنهى الرجال قبل عشرين يوماً مجلس فاتحة



الحاج يونس التي حضرها أناس من مشارق المدينة ومغاربها حاملين وجوههم وقلوبهم المثقلة بالحزن على رحيل الرجل الطيب الذي عرفوه في مواقف عديدة تذكر في ميزان أعماله الخيرة وبات مجلسه اليومي في زاوية مقهى الحاج قاسم فارغاً يثير حزناً لا يطيقه من يراه من رواد المقهى، لم يفتح الحاج قاسم مذياعه منذ سماعه نبأ وفاة الرجل ولم تثر أي مزحة في المقهى احتراماً لغيابه، إلا أن الحاج قاسم كان دائم الذكر لمواقفه التي يبالغ في بعض منها مع الحاج يونس فجأة ابتسم بارتياح وحيرة وهو يقول:

- رحمك الله يا حاج يونس كنت رجلاً طيباً جداً. دنيا! "إنّا لله وإنا إليه راجعون" (مرعي، ٢٠٢١: ص ١٥٩، ١٦٠)، تتوازي رؤية النص والتجليات الدلالية فيه عبر موضوع الفقد والوحدة، فالصديق أو الخليل أو الصاحب أمسى محلّ ضمور، واضمحلال في المدن التي تعتاش على الحروب والافتتال فهذا النوع من المدن تتكئ فيها الحياة على العوق الاجتماعي والشخصي عندما تبدأ الحروب والأقدار المنوعة بإسقاط الأنفس مثل أوراق الخريف، ففي هذا المثال نجد الشخصية قد مثلت دور الفقد من رؤية الأصدقاء المحيطين به، فالحاج يونس مثل دوراً اجتماعياً مهماً في الزقاق لأنه المركز الذكوري الوحيد في الزقاق عندما كانت زوجته تتباهى بوجوده في الحي، لكن المقهى الخارجي للزقاق يبرهن أن للحاج يونس علاقات مجتمعية متشعبة عندما كان يقيم مع عدد من كبار السن علاقة اجتماعية واعية، فنلاحظ عبر هذا النص المدى التأثيري الكبير الذي يمثله الحاج يونس في أصدقائه، وعملت منظومة الوحدة والفقد إلى اتخاذ أصدقائه موقفاً اجتماعياً موحداً تمثل في إغلاق مقهى الحاج قاسم وتعزيزت الصورة الوجدانية التي تركها الحاج يونس في أصدقائه، فضلاً عن ذلك فإن قيمة الفقد تجلّت فيما بعد وفاة الحاج يونس عندما خلا زقاق الجُمُج من الرجال الذين عرفهم الحي، وكان يعول عليه في وجود الشخصيات المهمة في الحي، أما الصديق فهو حالة من التوحد مع الذات وهو تجلٍ كبير استطاع الكاتب أن يستثمر فكرة الفقد من خلاله إلى العلاقة الجدلية بين الشخصية الزوانية وما يربطها من علاقات اجتماعية متنوعة داخل بيئة المجتمع.

وثمة نصوص أخرى يمكننا الاستدلال بها حول فقد الأصدقاء والأحبة لكنها في سياق، إنه بين نسوة الزقاق اللواتي جمعهن قدر واحد "حين خرجتا من ذلك المكان تبين أنّ هذا الفعل كان فعلاً كيدياً يراد منه تخويف وترويع كلّ من يسكن شارع شهر سوق رداً على ما أصاب العدو من خسائر إلا أن صبيحة لم تستطع تجاوز تلك الصدمة بأمان لقد أصيبت إثر خوفها بمرض



عضال لم يمهلها سوى ثلاثة أشهر لتفارق الحياة. بكت مديحة بكاءً عميقاً على جارتها صبيحة التي رافقتها في تلك المحنة. (مرعي، ٢٠٢١: ص ٢٢٦). فهذه مديحة راحت تندب حظها عندما غادرتها جارتها ورفيقتها صبيحة إثر مرض عضال، فقد لزمته صدمة كبيرة لم تستطع التخلص منها، وسرعان ما تحولت تلك الصدمة إلى حالة نفسية خطيرة جعلت مديحة تشعر أكثر من أي وقت مضى بالوحدة والفقد، ما دفعها إلى التفكير في الهجرة وترك العراق ومغادرته إلى الأبد راحلة إلى تركيا، تاركة خلفها الفوضى العارمة التي بدأت تبدد كل شيء وتضيع ملامح كل شيء، ومن هنا جاءت تمثّلات الوحدة والفقد لترسم أثرها الكبير على المكان وعلاقته الجدلية مع الإنسان (مديحة) فلم يعد يغري بخصوصيته وكيونته، فقد تحول تبعاً لتلك التحولات النفسية والمجتمعية والوجودية من مكان حاضن إلى مكان طارد، فضلاً عن ذلك فإن تلك التأثيرات ألزمت الشخصية تغيير نمطها الحياتي في مجمله، عندما اضطرتها الأيام لأن تعمل في مهنة الخياطة في مدينة أسطنبول، فالوحدة والفقد والتخلي عن الخصوصية الحياتية أشياء جردت مديحة من الكثير من مبادئها الشخصية التي تركتها مدفونة في أرض بلدها بعد نكباته الأخيرة وبعد أن تحول إلى مقبرة للأحبة والأصدقاء والأقارب.

الاستنتاجات:

- استطاعت هذه المقاربة أن تحدد المسار الكلي لموضوع الوحدة والفقد في هذه الرواية عبر تصنيفها إلى محورين اثنين، تمثّلات الفقد المعنوي وتمثّلات الفقد الحسي.



- شكّلت هذه الرواية محوراً ثيمياً دالاً عبر موضوع الفقد، عندما استثمرت موضوع الحرب، بوصفها سياقاً يستنفد الموارد والأفكار والبنىات، ويفضي إلى خلخلة عامة تنعكس سلباً على أفراد المجتمع والنظم المجتمعية عامة.
- ظلت تمثّلات اللجوء إلى الآخر أو إلى الأنا علامةً فكريةً أسلوبيةً واضحة في الرواية، تجلت عبر تحسس فاعلية الوحدة و الفقد في إطارها العام، فاللجوء أصبح ردة فعلٍ يسيرة تسلكها كثير من الشخصيات الروائية في هذه الرواية وصولاً إلى معالجة مركب النقص الكامن في الحدود الشخصية والأطر النظرية العامة.
- اشتملت الرواية على شبكة مجتمعية من التمثّلات التي اختزلت ضمن الفقد الحسي لكنها سجلت هيمنة واضحة في موضوع فقد الزوج والأخ والأصدقاء، وهي بطبيعة الحال تعني فقد الرجل المحارب الذي راح ضحية الحرب، وترك خلفه من ينتظره من دون أمل، ترك زوجة وأختاً وأصحاباً وأصدقاء، شكّل فقده لديهم حالة شعورية متأزمة.
- اتساع الطابع الدرامي التراجيدي في الرواية على مدار الأحداث، ذلك أنه ينبني على اشتمالية المأساة الواضحة في الرواية، فضلاً عن اتكائه على صورة السرد النفسي الحاد الذي يتجلى بطبيعة الرؤية الفكرية والسردية للنص.

المصادر والمراجع

- أدب الغرباء، أبو الفرج الأصبهاني، إصدار الدكتور صلاح الدين المنجد، حول مخطوطة فريدة في العالم، دار الكتاب الجديد، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٢ .
- الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي، يوسف مصطفى القاضي، لطفي محمد فطيم، محمود عطا حسين، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية - الرياض، ١٩٨١.
- الغربة الزمكانية في شعر المهجري: الأستاذ الدكتور يادكر لطيف الشهرزوري ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد ١٤ ، العدد ٤ ، لسنة ٢٠١٨.
- البنيات الدالة في شعر أمل دنقل: عبد السلام المساوي ، اصدارات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٩٤.
- تمثّلات الفقد في شعر عبد الرزاق الربيعي ، محمود يونس محمد ، رسالة ماجستير ، جامعة سامراء ، كلية التربية ، بإشراف: دلال هاشم كريم ، 2021



•زقاق الجُمجُم ، بيات مرعي ، منشورات ناشرون ، عمان الأردن ، الطبعة الأولى ٢٠٢١

•صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الاموي حتى نهاية العصر العباسي، سعد فهد الضويخ ، عالم الكتاب الحديث ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩.

•علم نفس عام ، عبد الحلیم محمود السيد وآخرون ، الطبعة الثالثة ، مكتبة غريب ، الفجالة ، ١٩٩٠.

•لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين بن منظور الأنصاري ، دار صادر - بيروت ، الطبعة الثالثة.

•معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

•المفردات في غريب القرآن ، ابو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، المكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٠.

References

Al-Asbahani, Abu Al-Faraj. (1972). The Literature of Strangers, published by Dr. Salah Al-Din Al-Munajjid, on a unique manuscript in the world.(first edition). Dar Al-Kitab Al-Jadid, Beirut - Lebanon.

Al-Dhuwaikh, Saad, Fahd. (2009). The Image of the Other in Arabic Poetry, (first edition). Modern Book World, Amman, Jordan.

Al-Masawi, Abd al-Salam. (1994). Significant Structures in Amal Dunqul's Poetry: Publications of the Arab Writers Union, Damascus.



Al-Qadi, Youssef, Mustafa, Lutfi, Muhammad, Fatim, Mahmoud, & Atta, Hussein. (1981). Psychological Counseling and Educational Guidance. Dar Al-Marikh Publishing, Kingdom of Saudi Arabia – Riyadh.

Al-Razi, Ahmed bin Faris bin Zakaria Al-Qazwini. (1979). A Dictionary of Language Measures, investigation: Abdul Salam Muhammad Harun, Dar Al-Fikr press.

Al-Shahrazouri, Yadkar, Latif. (2018). Space-Time Alienation in Migrant Poetry: Journal of Research of the College of Basic Education, Volume 14, Issue 4.

Bin Ali, Muhammad, bin Makram, Abu al-Fadl, & Jamal al-Din Ibn Manzur al-Ansari al-Ruwafa'i. Lisan al-Arab (3rd edition). Dar Sader – Beirut press.

Bin Muhammad, Al-Hussein. (1970). Vocabulary in the strange of Qur'an, , known as Raghib Al-Isfahani, Anglo-Egyptian Library.

El-Sayed, Abdel Halim, Mahmoud and others. (1990). General Psychology, (3rd edition), Gharib Library, Faggala.

Maree, Bayat. (2021). Zukak Al Jumjum. (first edition) , Publications Now Publishers, Amman Jordan.

Muhammad , M, Younis. (2022). *Representations of loss in the poetry of Abdul Razzaq Al-Rubaie, Mahmoud*, Master Thesis, University of Samarra, College of Education, under the supervision of: Dalal Hashem.